الأديب

عبد الكريم الكرمي

﴿أبو سلمى﴾

عبد الكريم الكرمي (أبو سلمى) في شعره الوطني

صبحي محمد عبيد*

مولد الشاعر ونشأته:

ولد الشاعر عبد الكريم الكرمي (أبو سلمى) في مدينة طولكرم عام 1909[1] وهو ابن الشيخ سعيد بن الشيخ علي بن منصور الكرمي[2].

درس الصف الأول والثاني الابتدائيين في مدرسة طولكرم الحكومية[3] وعندما تشكلت الحكومة العربية في دمشق استقدم إليها الشيخ سعيد الكرمي وعين عضواً في الشعبة الأولى للترجمة والتأليف.

عندما كان في السنة الثالثة الابتدائية في مدرسة الملك الظاهر الابتدائية في دمشق توفيت والدته وعاش في كنف والده[4].

في منتصف عام 1929 غادر والده دمشق إلى عمان حين أصبح قاضيا للقضاة في حكومة الشرق العربي في شرق الأردن ورئيس مجلس معارفها ورشح ليكون رئيساً للمجمع العلمي الأردني الذي كان يراد تأسيسه في شرق الأردن سنة 1924 ولكنه لم ينشأ[5].

في الأردن درس الشاعر السنة الأولى الإعدادية في مدرسة السلط الثانوية[6]، ثم غادر الأردن

---

* جامعة بيرزيت - كلية الآداب - دائرة اللغة العربية وآدابها.

[1] خلف، علي حسن. **أبو سلمى زيتونة فلسطين**. نشر الاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين.

[2] عبد الكريم الكرمي، الشيخ سعيد الكرمي، سيرته العلمية والسياسية، المطبعة التعاونية، دمشق، 1973، ص25.

[3] مصطفى الفار، الشاعر أبو سلمى أديباً وإنسانا، ص31.

[4] عبد الكريم الكرمي، الشيخ سعيد الكرمي، ص27.

[5] دكتور ناصر الدين الأسد، محاضرات في الشعر الحديث في فلسطين والأردن، ص19

[6] مقابلة شخصية مع الأديب نصري الجوزي، تموز 1988.

إلى دمشق ليلتحق بمدرسة التجهيز الأولى، وهو يسمى "بمكتب عنبر"[1].

أنهى أبو سلمى دراسته في مكتب عنبر سنة 1927 وقد أقام المجمع العربي حفلة تكريم للشعراء الأربعة: أبي سلمى، وأنور العطار، وزكي المحاسني، وجميل سلطان، وكان خطيب الحفل علامة الشام الأستاذ محمد كرد علي[2].

أبو سلمى في القدس:

عاد أبو سلمى إلى فلسطين بعد أن أتم دراسته في دمشق وقد بدأ عمله في التدريس في المدرسة العمرية في القدس عام 1928 بمساعدة الأديب الفلسطيني محمد إسعاف النشاشيبي ثم انتقل إلى المدرسة الرشيدية، وقد تعرف في المدرسة الرشيدية إلى إبراهيم طوقان الذي كان يعلم وقتئذ في المدرسة نفسها.

انتسب أبو سلمى إلى معهد الحقوق في القدس وكان من أساتذته عادل زعيتر وبندلي صليبا الجوزي، وكان من طلاب الحقوق في القدس أحمد الشقيري، وحسن صدقي الدجاني، واكرم زعيتر، وواصل أبو سلمى دراسته إلى أن حصل على شهادة الحقوق بتاريخ 1941/5/12[3].

فصل أبو سلمى من عمله في التدريس بسبب نشر قصيدته "جبل المكبر" وقد نظمها بمناسبة بناء قصر المندوب السامي البريطاني على جبل المكبر.

يقول الأديب نصري الجوزي: بعد إقالة أبي سلمى من التعليم عمل في الإذاعة بمساعدة إبراهيم طوقان الذي سلمه القسم الأدبي والمسرحيات، وكنت أقدم المسرحيات لأبي سلمى لمراقبتها، وقد سجن أبو سلمى بعد عمله في الإذاعة لبضعة أشهر ودامت فترة سجنه ما يقارب من ستة أشهر في سجن عكا وذلك بسبب مواقفه الوطنية[4].

---

[1] مصطفى الفار، الشاعر أبو سلمى أديباً وإنسانا.

[2] صحيفة الثورة، دمشق، العدد 4853، تاريخ1978/12/21.

[3] مجلة الكاتب الفلسطيني العدد (1) شباط 1978.

[4] مقابلة شخصية مع الأديب نصري الجوزي، بدمشق تموز 1988.

ولم يكتف أبو سلمى بقصيدته "جبل المكبر" فكانت قصيدته المدوية لهب القصيد التي وجهها إلى ملوك العرب عام 1936، عندما طالبوا بإيقاف الثورة الفلسطينية اعتماداً على حسن نوايا صديقتهم بريطانيا، ويومها لم تنشر هذه القصيدة في أي صحيفة محلية، ولكنها طبعت على الورق الحريري ووزعت بعشرات الألوف ومما جاء فيها:

انشـر على لهـب القصـيد شـكوى العبيـد إلى العبيـد
شـــكوى يرددهـــا الزمـــان غـــداً إلـــى أبـــد الأبيـــد

سار أبو سلمى مع رفيقه إبراهيم طوقان على طريق الحياة والشعر. وكان هو وإبراهيم لهما صلات ممتدة مع سوريا ومصر ففي دمشق كانا عضوين في رابطة أدبية اسمها "المجمع الأدبي"[1] وكان لأبي سلمى صلة مع أدباء مصر، وخاصة إبراهيم المازني، وأحمد أمين، حيث كانوا يأتون إلى فلسطين لإلقاء المحاضرات[2]، كما زار فلسطين عمر أبو ريشة وشفيق جبري وبدر الدين الحامد، ومن العراق الجواهري، حيث ألقى في يافا بعض قصائده. ومن الذين زاروا فلسطين والتقى بهم ميخائيل نعيمة الذي ألقى محاضرة في القدس بعيدة عن جو الصراع العربي اليهودي.

شارك أبو سلمى في تأسيس الجمعيات الأدبية وكان له نشاط في الصحافة وكان ينشر في المجلات المصرية مثل مجلة الأهرام والرسالة وفي الصحف الفلسطينية والعربية. ويشارك في جميع الفعاليات المختلفة فهو يلقي قصائده في المدرسة الوطنية العليا للبنات في بيت لحم عام 1938[3]، ويؤبن الشاعر مطلق عبد الخالق[4]، ويشارك في حفل تأبين لأمير الشعراء

[1] صحيفة الثورة دمشق 1980/10/15.

[2] ن.م.

[3] مقابلة شخصية مع الأديب نصري الجوزي، بدمشق تموز 1988.

[4] مجلة المعرفة العدد (159) أيار 1975.

شوقي في مدرسة النجاح الثانوية في نابلس[1] ويذهب إلى لبنان للمشاركة في تأبين عمر الفاخوري[2]. ونتيجة لتفاعله مع أحداث وطنه وأعلام أمته أقيمت له حفلات التكريم.

زواجه:

كان لأبي سلمى قبل زواجه مغامرات عاطفية مثل الكثير من الشباب وكان هو وصديقاه إبراهيم طوقان و جلال زريق يشكلون ثالوثاً متوافقاً في الشعر والهوى[3]، وبعد أن طاف في شعاب الهوى والجمال وقع اختياره على من استهواه جمالها وأدبها، وهي من دعاها "بذات الخال" إنها رقية حقي ابنة توفيق حقي العبد الله رئيس بلدية عكا، وكانت رئيسة الاتحاد النسائي في عكا

أبو سلمى في حيفا:

انتقل أبو سلمى مع زوجته إلى حيفا بعد حصوله على شهادة الحقوق من معهد الحقوق في القدس، وكان انتقاله إلى حيفا عام 1943[4] وفي حيفا اشتغل في المحاماة مع صديقه المحامي صلاح الدين العباسي[5].

استمر الشاعر في حيفا يعمل في المحاماة وظيفة ويواصل نشاطاته السياسية والثقافية إلى أن وقعت النكبة الفلسطينية عام 1948 فخرج مرغما من حيفا.

هجرته إلى دمشق:

هاجر أبو سلمى إلى دمشق وصار يبحث عن تصريح له لممارسة مهنة المحاماة وقد تمّ ذلك بفضل القرار الذي أصدره نقيب المحامين الأستاذ احمد القضماني[6].

---

[1] محمد خورشيد أمير الشعراء شوقي بين العاطفة والتاريخ مطبعة بيت المقدس ط1. ص228.

[2] مجلة الكاتب الفلسطيني، العدد1، شباط 1978.

[3] البدوي الملثم. إبراهيم طوقان في وطنيّاته ووجدانياته. المكتبة الأهلية ط1، بيروت 1964 ص 112.

[4] مصطفى الفار. الشاعر أبو سلمى أديباً وإنسانًا. ص40.

[5] نصري الجوزي. مقابلة شخصية.

[6] أحمد صوان. صحيفة الثورة. دمشق 1980/6/8.

استمر أبو سلمى في عمله في المحاماة و التدريس وعمل رئيس دائرة في وزارة الإعلام السورية وأشرف على الصفحة الأدبية في مجلة "المضحك المبكي" التي كانت تصدر في دمشق.

كان يذهب مع الوفود العربية للتحدث باسم فلسطين أمام المؤتمرات الدولية، حضر مؤتمراً في ستوكهولم لنصرة الشعوب في منتصف الخمسينيات وطلب أن يتكلم باسم فلسطين، وبعد التدخلات من الأصدقاء سمح له أن يتكلم باسم اللاجئين وكانت كلمته بعد منتصف الليل، كما حضر المؤتمر الأول لكتاب آسيا وأفريقيا في طشقند عام 1958، ولم يقبل كممثل لفلسطين، فألقى كلمته عن فلسطين كممثل للأردن[1].

وبالإضافة إلى مشاركته في المؤتمر فهو يحاضر في الأدب الفلسطيني حينا، وفي الثقافة الوطنية الفلسطينية حينا آخر ويكتب المقالات المتنوعة في المجلات، ويتردد على المركز الثقافي العربي بدمشق.

هو عضو مؤسس في اتحاد الكتاب العرب في القطر العربي السوري،

وعضو مؤسس في جمعية الصداقة الفلسطينية السوفياتية،

وعضو في المجلس الوطني الفلسطيني،

ورئيس الاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين.

نشاط أبي سلمى في منظمة التحرير الفلسطينية:

حين انبثقت م.ت الفلسطينية كان أبو سلمى عضوا في أول مؤتمر لها، المؤتمر الفلسطيني الأول الذي انعقد في القدس في 28/أيار/1964 ومنذ أن قامت أجندة المنظمة رغب إليه رئيسها أحمد الشقيري أن ينخرط في صفوفها، وهذا ما تمّ عام 1965 عندما أحيل أبو سلمى على المعاش، والتحق نهائيا بـ م.ت.ف وقد حضر المؤتمر التأسيسي للتضامن الآسيوي

[1] صحيفة الثورة 1980/6/8 دمشق.

الأفريقي في القاهرة عام 1965 وفي عام 1971 حضر مؤتمر السلم العالمي في بودابست بصحبة خالد الفاهوم وياسر عمرو رحمهما الله.

في عام 1966 حضر مؤتمرات للكتاب، وللسلم في هافانا وبكين والقاهرة في عام 1967 حضر مؤتمرات في نيقوسيا ودمشق والقاهرة وبيروت ونيودلهي، والتقى في مدينة غزة مع سارتر وسيمون دوبوفوار عام 1967، وفي عام 1970 حضر مؤتمرًا في القاهرة ومؤتمرين في موسكو، ومؤتمرا في كل من روسيا وبغداد ونيودلهي وطرابلس الغرب وستوكهولم[1].

لقد ترك موت زوجته في السنتين الأخيرتين، من عمره فراغا كبيرا وصار لا يرى إلا حزينا.

نيله لجائزة اللوتس:

منح أبو سلمى جائزة اللوتس من قبل اتحاد كتاب آسيا وإفريقيا يوم الخامس من أكتوبر عام 1978 وقد أعلنت عن ذلك هيئة التحكيم الدولية للجائزة في طشقند[2] وجاء في قرار التحكيم: إن الشاعر الفلسطيني أبا سلمى قد عاش من أجل قضية شعبه ووطنه وكرس شعره صوتاً صافيا ومخلصا لقضايا وطنه المعذب فلسطين[3].

وفي المؤتمر السادس لاتحاد كتاب آسيا وأفريقيا، وفي يوم الأحد الأول من شهر تموز عام 1979 وفي حفل مهيب، تلقى أبو سلمى جائزة من يد الدكتور اوغستينونيتو رئيس جمهورية أنغولا الشعبية كما أقيمت له حفلات تكريمية فلسطينية في مدينة بيروت وحفلات تكريم عربية في كل من دمشق وبغداد.

[1] حسام الخطيب. محاضرة بعنوان أبو سلمى في منظمة التحرير.

[2] صحيفة تشرين، العدد (933) دمشق، 1978/10/17..

[3] صحيفة الثورة، دمشق، 15 /1980/10.

وفاته:

سافر أبو سلمى إلى موسكو لحضور اجتماعات لجان السلم والتضامن وهناك أحس بألم مفاجئ فأجريت له عملية جراحية[1] وعانى من المرض والالتهابات وحضر ابنه سعيد فأصر على نقله إلى واشنطن ليشرف عليه مع الأطباء المختصين وبعد سبعة أيام من وصوله توفي في الحادي عشر من تشرين الأول عام 1980 وكانت وصيته أن يدفن في أقرب مكان لفلسطين. فأصدر الرئيس ياسر عرفات تعليماته أن يدفن في مقبرة شهداء مخيم اليرموك بدمشق فدفن هناك رحمه الله[2].

آثاره:

آثاره الشعرية: أصدر أبو سلمى ديوانه الشعري متضمناً أعماله الكاملة عام 1978 وقد صدر الديوان عن دار العودة ببيروت، وجاء هذا الديوان جامعا لقصائده الشعرية التي نشرها في دواوينه من قبل، بالإضافة إلى تلك التي نشرها في الصحف المختلفة ووافاه أصدقاؤه بها بعد أن كادت تضيع، وقبل المجموعة الشعرية الكاملة كان قد أصدر عدداً من الدواوين:

1. ديوان **المشرد** طبع في دمشق عام1953 وبيروت 1963 والناصرة 1979.
2. ديوان **أغنيات بلادي** طبع في دمشق عام1959.
3. ديوان **أغاني الأطفال** طبع في دمشق عام1964.
4. ديوان **من فلسطين ريشتي** طبع في بيروت 1971 وطبع في دار الأسوار في عكا 1980.

الآثار النثرية:

1. كفاح عرب فلسطين طبع في دمشق عام 1964.
2. أحمد شاكر الكرمي طبع في دمشق عام 1964.
3. الشيخ سعيد الكرمي طبع في دمشق عام 1973.

[1] الموسوعة الفلسطينية، ج. 3، ط1، 1984، ص 171.

[2] مجلة فلسطين الثورة، العدد (351)، 1980/10/27.

شعره الوطني:

يحتل الشعر الوطني نصيباً معتبرا من ديوان أبي سلمى، وليس هذا غريبا على شاعر هام بجمال وطنه، وعاش سنوات هانئة في ظلاله، ثم اكتوى كما اكتوى أبناء شعبه بنيران المؤامرة الغادرة التي حصدت، من الشعب الفلسطيني ما حصدت وألقت في غياهب السجون ما ألقت، وقسمت الوطن قسمة جائرة.

إن المتمعن في شعر أبي سلمى يجد صورة صادقة للوطن الفلسطيني ومعاناته، صورة تجمع كل تفاصيل المؤامرة وتوضح آمال الأمة كما تعكس بوضوح حنين الشعب الفلسطيني إلى أرضه وإصراره على تحريرها.

استطاع أبو سلمى بشاعريته الفياضة وإحساسه بعمق المعاناة أن يصور نكبة فلسطين بكل ما لها من ظلال، على نحو لم يستطع الوصول إليه إلا القليل من الشعراء الفلسطينيين وسأتناول الموضوعات التي تطرق إليها في شعره الوطني تسهيلاً للدراسة وتوضيحا لأبعاد الموضوع من جوانبه المتعددة.

هيامه بجمال فلسطين وقداستها:

هام أبو سلمى حبا بفلسطين فتغنى بحبها طوال عمره وقد سيطر هذا الحب على معظم قصائده وكان المحرك لعواطفه في الشعر الوطني والقومي، كما أن حبه لوطنه كان يخيم على الكثير من قصائد الحب التي يمتزج فيها حب الحبيبة بالوطن.

أبو سلمى هائم بجمال فلسطين وطبيعتها الخلابة

أي ترب غير هذا الترب من مسك وعنبر
أي أفق غير هذا الأفق في الدنيا معطر[1]

إنه معتز بوطنه الجميل الذي تغار منه جنان الخلد وهو يفاخر الدنيا به

لنا وطن يغار الخلد منه وفوق أديمه درج الخلود

[1] **ديوان أبي سلمى** ص 299.

نـدل بـه على الـدنيا وتزهـو على أعطافنـا منـه البرود[1]

ولسيطرة حب بلاده عليه فإنه لا يرى جمالاً كجمال وطنه بل لا جمال من غير فلسطين الجميلة

أي سـحر في العـالمين إذا لم يحمل الفجر أغنيات بلادي[2].

وتأخذه مشاعر الحب بعيداً بعيداً فيتصور أن النجوم في السماء على الرغم من جمالها الأخاذ ولألائها الساحر لا تبلغ جمال أزهار فلسطين بل أنها تحلم أن تكون مثلها تفتحاً وإشراقاً:

نعمة الله أنت يا وطني الغالي وفي ظلـك المقـدس نـنعم
أين من زهرك النجوم اللواتي في سـماواتها بزهـرك تحلـم[3]

إنه لا يرى بديلاً يوازي فلسطين مكانة وجمالاً إنها الوطن وهل هناك أعز من الوطن؟!

من يشتري وطناً أو يبتغي بدلاً وأين في الكون أو في الجنة البدل؟[4]

وبجانب الجمال فان أبا سلمى معتز بفلسطين التاريخ، بفلسطين المقدسة، ففلسطين، كانت تطمح إليها كل القوى نظرًا لتميّزها بموقعها الجغرافي ومكانتها الدينية.

أبو سلمى يشيد بفلسطين التاريخ والقداسة، يشيد بفلسطين التي لم تستسلم للغاصبين.

فلسـطين يـا حلـم الثـائرين فلسـطين يـا وطن الخالـدين
أطلـي علـى أفـق الأرجـوان معطـرة بشـذى الـدارعين
وسـيري على ربـوات الزمـان مجنحـة بجهـاد السـنين[5]

[1] ن.م. ص 262.
[2] ن.م.، ص. 211
[3] ن.م.، ص. 58
[4] ن.م.، ص. 158
[5] ن.م.، ص. 11

إن جو فلسطين عابق بالمجد وترابها ينضح بالبركة والقداسة، إنها وطن الأنبياء ومهد الرسالات:

أين من جوك المضمخ بالمجد وذكرى محمد وابن مريم
كل بيت نراه حبة عين كل عين في أرضنا عين

والشاعر يعلي وطنه على الممالك والعروش:

ذرة من ترابك الطهر خير من عروش خلف الحدود وأعظم[2]

وكيف لا يكون هذا التراب خيراً من الممالك والعروش والشاعر يرى في ذراته حروف القرآن المحاطة بهالات العلى والشرف.

يا حفنة التـرب اعزفي فيك بقايا السلف
ما تلك ذراتك بل تلك حروف المصحف[3]

ومن اللافت للنظر أن الشاعر يرى أن فلسطين هي الشعب، وهي الأرض، وقد تكون الإشادة بفلسطين الأرض المقدسة كما تكون بفلسطين الشعب، إن التلاحم بين الشعب والأرض تلاحم وصل حد ذوبان الواحد في الآخر ولا يمكن أن تفصم عراه

نحن فلسطين وفينا نمت عبر الزمان الشام والأردن
كرومها نحن وزيتونها نحن رباها الخضر والأعين
نحن فلسطين و تاريخها فيه سنى ثورتنا يكمن[4]

من أجل هذا كان حبه لفلسطين حباً متميزاً ومن أجل هذا عاش عمره مغنياً لفلسطين الوطن:

[1] ن.م.، ص. 58
[2] ن.م.، ص. 58
[3] ن.م.، ص. 32
[4] ن.م.، ص. 363

هـذي فلسـطين الهـوى وطني جل الهـوى العربي والنسـب[1]

ومن كانت فلسطين عنده بهذه المكانة المتميزة فإنه يرفعها على ما عداها فهي الغالية الحلوة الطاهرة كلما عانى من أجلها ازداد لها حباً:

وقعت فلسطين كبقية الأقطار العربية في براثن الدول الاستعمارية، ولكن نكبة فلسطين كانت أشد النكبات فقد تحررت الأقطار العربية من الحكم المباشر للدول الاستعمارية بينما فلسطين أخذت أرضها وشرد شعبها.

كان أبو سلمى شاهداً على مشاريع المؤامرة التي كانت تعد في المطابخ السياسية الاستعمارية التي بدأت بإرسال اللجان بحجة دراسة الأوضاع في فلسطين ليخرج بعضها بنتيجة أعدت مسبقاً كاقتراح لجنة بيل الملكية. ويهزأ أبو سلمى من هذه اللجنة واقتراحها الجائر:

أهـــدوا بـــلادي لجنـــة ملكيـــة حتـى تحـل مشـاكل المسـتقبل
درست فما وجدت سوى تقسيمها حـلا فكـان الحـل أكـبر مشـكل[2]

وكانت بريطانيا الدولة المنتدبة على فلسطين بعد الحرب العالمية الأولى وهي المتآمر الأول على الشعب الفلسطيني. ولذا يصف أبو سلمى الإنجليز بالقرصان المخادعين ويصف عاصمتها بأنها وكر الدساس والمؤامرات.

عصـابة قرصـان إذا مـا خـبرتهم رأيـــت وراء المنشـــآت أفاعيـــا
يقولـون نحـن الأصـدقاء فـاقبلوا لقـد كـذبوا إنـا عرفنـا الأعاديـا[3]

وأبو سلمى يفضح التناقض والخداع في مواقف الدول الاستعمارية، التي تتظاهر بأنها تسعى إلى تطور الشعوب وسعادتها بينما هي تستنزف طاقات الأمة وخيراتها وهذه الدولة رحمة وسلام في بلادها بينما هي نقمة وعذاب على البلاد المستضعفة.

---

[1] ن.م.، ص. 226

[2] ن.م.، ص. 93

[3] ن.م.، ص. 68

يا حادبين على الضعيف رويدكم تـاريخكم فـي صـفحتيه العـار
فهنـا تجـرون القيـود دواميـا وهنـاك فـي أيـديكم الأزهـار[1]

وقد تمخضت المؤامرة عن مشروع شاركت فيه عدة أطراف وقدم للأمم المتحدة فأقرته في 29/نوفمبر/ 1947 وهكذا صدر قرار تقسيم فلسطين. ويصرخ أبو سلمى في وجه المؤامرة:

وطني عش أبا العروبة واسلم وطني حليـة الزمـان تبسـم
قسـموا قلبك الموشح بـالنور وتـأبى العلى لـه أن يقسـم[2]

ويثور أبو سلمى في وجه من يزعمون أن التقسيم أقرته الشرعية الدولية:

لا تقولوا الحقوق ما دام حقي في فلسـطين خلـف دمعي يجـثم
لا تقولـوا هـذي الشـرائع منـا شـرعة الغـاب منكم اليـوم أرحـم[3]

تحدّي الشعب الفلسطيني:

نهض الشعب الفلسطيني للدفاع عن حقه وأرضه ومقدساته. وقد استطاع أبو سلمى أن يصور هذا التحدّي عبر المراحل المختلفة فهو ابن الشعب الذي يدرك إصرار الجماهير وإيمانها بتحريك الأمور.

والشاعر ماهر في استعمال رموز التاريخ من اجل إثارة مشاعر الشعب الفلسطيني فهو يخاطب جبل المكبر الذي كبر من فوقه عمر بن الخطاب رضي الله عنه عندما اطل من فوق جبل المكبر على مدينة القدس التي جاء لاستلام مفاتيحها فهلل وكبر وهلل المسلمون وكبروا وهو يهدف من وراء ذلك إلى تذكير الشعب الفلسطيني بالماضي المجيد للأمة الإسلامية حتى يحذو حذو الأجداد والأماجد:

جبـل المكبر طـال نومك فانتبـه قـم واسـمع التكـبير والتهلـيلا

[1] ن.م.، ص. 38
[2] ن.م.، ص. 57
[3] ن.م.، ص. 58

فكأنمـا الفـاروق دوى صـوته فجـلا لنـا الـدنيا وهـز الجـيلا
جبـل المكـبر لـن تلـين قناتنـا مـالم نحطم فوقك البستيلا [1]

ويطيب لأبي سلمى أن يسمي فلسطين بأخت صلاح الدين، لما لهذا المجاهد من فضل في تحريرها من الصليبيين الغزاة كما يذكر بمعركة اليرموك التي نصر الله فيها المسلمين واندحر بسببها الروم عن كل بلاد الشام.

الشاعر يتحدث عن المعارك التي خاضها المجاهدون في جبال النار التي أطلق عليها هذا الاسم عندما أشعل الفلسطينيون النار في وجه نابليون الذي استعصى عليه فتح فلسطين. ويردد هذا الاسم عدة مرات موحياً أن جبل النار سيبقى مشعلا للنار في وجه الغاصبين فما أشبه الليلة بالبارحة:

جبـل النـار يـا أعـز الجبـال أنـت لا زلـت معقـد الآمـال
تنبت المجد فوق سفحك فتيان وتسـقيه مـن دم الأبطـال
أيهـا الثـائرون في جبـل النـار سـلاما يـا زينـة الأبطـال[2]

وصمود الشعب الفلسطيني أمام المحن يعود إلى تعلقه بفلسطين الوطن المقدس الذي سيبقى على الدهر شمساً تشع بأنوارها مهما توالت الخطوب واشتدت الأرزاء:

يـا فلسـطين نحـن باسـمك فـي الساح وقوفا نخوض كل غمار
كم أرادوا أن يطفئوا اسم فلسطين ولـن يخمـدوا خفـوق الـدراري[3]

ومن أهم عوامل الصمود أن يكون التلاحم بين الشعب والوطن عميقا إلى حد الانصهار بحيث يمثل كل منهما الآخر:

[1] ن.م.، ص. 17
[2] ن.م.، ص15
[3] ن.م.، ص313

في فلسطين خالدون على الدهر خلود الجبال والأنهار
وأغاني اليرموك نحن وحطين وذرات تربها المعطار
نحن زيتونها المؤثل فيها نحن فيها وراء كل اخضرار[1]

وهو يطلب من الشعب الفلسطيني أن يحمل العبء وأن يقرر المصير وأن لا يترك الأمور بيد من يوافقون على ما تريده بريطانيا، فالشعب الفلسطيني هو صاحب القرار وهو صاحب السلطة، وليس أولئك الذين يوافقون المستعمر على ما يريد:

يـــا أيهـــا الشـــعب النبيـــل أمنـــت مـــن شـــر العثـــار
قـــــرر مصـــــيرك أنـــــت لا من يبصمون على القرار[2]

والشاعر يحمل على أصحاب الأقلام المأجورة، الذين باعوا أنفسهم للمستعمر، فهو لا يطيق وجودهم في شعب ثائر، ضرب أروع الأمثلة في التضحية والصمود:

هـــذه الحريـــة الحمـــراء مـــا عرفـــت إلا فلســـطين مراحـــا
وتقلبنـــــا علـــــى نيرانهـــــا وصـــهرناها قلوبـــا وصـــفاحا
كيـف يمشـي القلـم المـأجور في سـاحة تجتاحهـا النـار اجتياحـا[3]

وعلى الرغم من التضحيات العظيمة للشعب الفلسطيني، وهي تضحيات شهد بها الأعداء والأصدقاء على حد سواء، إلا أن المؤامرة كانت أكبر من طاقته، فكانت النكبة والتشريد بعد المجازر والمآسي، على نحو قل أن عانى مثله شعب من الشعوب.

ولم ييأس أبو سلمى ولم يذرف الدموع، بل كان محرضاً على الثورة، لأن الوطن لا تداوى جراحاته إلا بالتضحيات:

[1] **ن.م.**، ص313
[2] **ن.م.**، ص49
[3] **ن.م.، ص.** 228

يـا أخي أنـت معي في كـل درب فاحمل الجرح وسـر جنبا لجنب
نحن إن لم نحترق كيف السنا يمـلأ الـدنيا ويهـدي كـل ركـب[1]

وقد غنى أبو سلمى للثوار والمسجونين:

أيهـا الثـائرون في جبـل النـار وقيـــتم غوائـــل الحـــدثان
نحـن أسـرى وأنتم أنتم الأحـرار خلـف السـجون والقضـبان[2]

تشريد الشعب ومعاناته:

إن أبا سلمى بارع في تصوير معاناة الشعب الفلسطيني، ويعود هذا إلى أنه كابد التشريد وعاش تجربة العذاب، وهذا يظهر بوضوح في أبياته المثقلة بالحزن والتعاسة وشقاء العيش وذل الرجاء:

أدمشـــق إنـــا لاجئـــون ألا يشجيك منظر خدنا الترب
مـــرت بنـــا الأعـــوام مثقلـــة عبرت تجـر دوامي النـوب[3]

إن من أشد المعاناة على الفلسطيني المنكوب وهو في خيمته السوداء أن يرى أرضه ممتدة أمـامـه فلا يستطيع الوصول إليها، ويـرى بيتـه الـذي بنـاه آبـاؤه و أجـداده، وقد سكن فيه الغرباء، ويترجم أبو سلمى الشعور في مخاطبته للاجئ الفلسطيني المشرد:

يـا أخي أيهـا المشـرد قـل لي هل تحس اللهيب في إنشادي
هل ترى دارك الموشاة بالدمع بعيـد السـرى وطـول البعـاد[4]

[1] ن.م.، ص. 156
[2] ن.م.، ص. 311
[3] ن.م.، ص. 284
[4] ن.م.، ص. 224

ولا يملك الشاعر إلا أن يألم مع شعبه المنفي في الخيام، وتنغرس عذابات شعبه في قلبه فتدميه، وهو محب لهذا الشعب يحيا بهمومه ويحمل نكبته في حله وترحاله.

أهلي على الدهر تدميني جراحهم في حبهم يتساوى العذر والعذل
خيامهم في مهب الريح معولة ودورهم من وراء الدمع تبتهل[1]

وهكذا نرى أن الخيمة احتلت مكانا بارزا في معجم أبي سلمى الطافح بعذاب الشعب الفلسطيني، والخيمة في الأدب الفلسطيني محور المأساة في حياة الشعب الفلسطيني المشرد، فاللاجئون الفلسطينيون والمخيمات الفلسطينية في مفرداته متداولة، من الصعب محوها من ذاكرة الإنسان الفلسطيني المشحونة بمفردات كثيرة تصلح كل واحدة منها أن تكون باباً من أبواب المعاناة.

ويكشف أبو سلمى عن معاناة أخرى للفلسطيني عندما ينتقل عبر الحدود عربية أو أجنبية، وما زالت هذه المعاناة إلى اليوم، فالفلسطيني يحمل وثيقة سفر من الدولة العربية التي لجأ إليها، عنوانها وثيقة اللاجئين الفلسطينيين. ويسمي الفلسطينيون هذه الوثيقة بالوثيقة الملعونة لتعرضهم للمضايقات عبر الحدود بسببها، فهم يعانون الانتظار الممل وتحقيق رجال المخابرات المتغطرسين. ويصف أبو سلمى هذه المعاناة بقوله:

أرى الحدود دون أهلي وحدهم ووحدهم جباههم تعفر
هوية صفراء في أيديهم كأنما هي الهواء الأصفر[2]

ومن أنواع المعاناة سماع اللاجئين الفلسطينيين الكلمات اللاذعة من إخوتهم العرب مثل الهاربون من فلسطين، البائعون للأرض"....إلى غير ذلك من الكلمات الجارحة. وكم هو صعب على الفلسطينيين الذين سقط منهم عشر شعبهم شهداء وهم يتصدون لبريطانيا العظمى والصهيونية العالمية، أن يسمعوا هذا الكلام المر. ومن أنواع المعاناة التي يتحدث

[1] ن.م.، ص. 215

[2] ن.م.، ص. 251

عنها أبو سلمى تشتت العائلات الفلسطينية، وموت الفلسطينيين في أرض الغربة بعيداً عن الأهل والأحباب، تشيعهم جموع غير جموع الأهل، ويدفنون في تراب غير تراب الوطن.

كيف تبكي وهل هناك دموع ذهب الصحب والهوى والربيع
كل يوم أحبة تتهاوى وقبور غريبة وجموع
لا التراب الذي يضم شظاياهم تراب ولا الجموع جموع
لا يريدون غير تراب فلسطين ولو أنها الصفا والبقيع[1]

وهكذا يبقى الفلسطيني يحمل هموم وطنه وهموم شعبه يعاني ويعاني في أرض الغربة بعيداً عن الأهل والوطن وسيبقى العذاب عذاب الاغتراب وستبقى المعاناة لكل الشعب ما دام بيت الشعب وهو الوطن يعاني من ظلم الغاصبين.

تآمر حكام العرب على فلسطين:

تشرد الفلسطينيون بعد النكبة، ومما زاد من معاناتهم أنهم لم يلقوا اهتماما واستعدادا من الحكام العرب لعمل ما من شأنه أن يحرر الأرض الفلسطينية ويحمي الكرامة.

بل إن هؤلاء الحكام لم يكن يعنيهم حماية الأرض التي يحكمونها، لقد أصيب الشعب الفلسطيني نتيجة ذلك بخيبة أمل مرة عبر عنها أبو سلمى بألم عميق:

يا فلسطين كيف أهتف والقلب ينادي ولا يلاقي مجيبا
من يلبي النداء يهمي نجيعاً فتخط الأيام سفراً رهيباً[2]

إن فلسطين تبكي مجدها وعزتها وتبكي لما أصابها في هذا الزمن الذي تتعرض فيه لتآمر الحكام، وويل لأمة يحكمها غادرون قد جعلوا من أنفسهم آلهة تعبد، فأذلوا العباد وضيعوا البلاد.

[1] ن.م.، ص. 275

[2] ن.م.، ص. 158

هذي فلسطين هل أشجتك تربتها تبكي الأحباء من غابوا ومن رحلوا
تبكي المروءات مرخاة غدائرها وما انتخت للجهاد البيض والأسل
تبكي دويلات سوء سميت دولا وخلف كل رداء يختفي "هبل"
حربا على الشعب ما زالت مضللة لا كانت الحرب بل لا كانت الدول[1]

ولو أعلن هؤلاء الحكام أنهم لا يستطيعون فعل شيء لكان ذلك اعترافا بالعجز ولكن المأساة أنهم يتظاهرون بأنهم الحريصون على مصلحة الأمة. ويهزأ أبو سلمى من هذه العنتريات الكاذبة ويعري الحكام بشكل فاضح.

قال الملوك غدا نحمي دياركم ليت الأذلاء ما قالوا وما فعلوا
وعللونا بساح المجد ننزلها إذا بهم ساعة الجلى هم العلل[2]

ويغتاظ أبو سلمى عندما يرى حكام العرب يخادعون شعوبهم ويظهرون كأنهم أعزاء أو كأنهم أصحاب الأمر والنهي بينما أمورهم في يد الأجنبي يسيرهم كيف يشاء.

فإلام السير اختيالا على الأفق وحتى متى تجر الذيول
وجباه لكم معفرة دهم على الأرض لم تزل والوحول
ودويلاتكم على الأهل حرب وتجاه العدى النسيم العليل[3]

الحنين إلى فلسطين:

يعتبر الحنين دعامة مهمة من دعائم الشعر الفلسطيني بعد النكبة ولا نجد شاعراً من الشعراء الفلسطينيين إلا وله سهم فيه. إن الحنين إلى الأوطان أمر بديهي يتفق وطبيعة النفس الإنسانية وهو الدليل على تعلق الإنسان بوطنه بكل ما يمثله من معاني الاستقرار والأمن والطمأنينة.

[1] ن.م.، ص. 158

[2] ن.م.، ص. 217

[3] يعقوب العودات، من أعلام الفكر والأدب في فلسطين، ط2، 1987، ص 541.

لقد عزف على وتر الحنين الشعراء الذين شاءت الأقدار أن يحيوا بعيدا عن أوطانهم ولكن لوعة الفراق وحرارة الأشواق تختلف من شاعر إلى شاعر ويبقى شعر الحنين في الشعر الفلسطيني بشكل عام متميزا عن غيره باعتباره صورة لحنين شعب وليس صورة لحنين فرد أو مجموعة محدودة، ومن جانب آخر فإن ما تعرض له الشعب الفلسطيني من ويلات خارج وطنه – وهو ما لم يتعرض له شعب من الشعوب – أعطى للحنين بعد المعاناة والتشرد القسري.

إن هناك فرقاً بين من يعاني البعد عن وطنه لكنه يستطيع العودة إليه إن أراد، ومن يعاني البعد عن الوطن ويستحيل عليه أن يعود. كما أن هناك فرقا، بين الحنين إلى وطن يحكمه واحد من أبناء هذا الوطن بغض النظر عن تسلطه ووطن يحكمه الغرباء الأجانب الذين لا يراعون أبسط حقوق الإنسان لشعب طوحت به عواصف التآمر إلى منافي الاغتراب.

إن الأمور تقضي بان تكون المعاناة في الحالة الثانية أشد إيلاما وانكى جروحاً، وهذا ما يميز شعر الحنين عند الشعراء الفلسطينيين البارزين ومنهم أبو سلمى الذي تدمع أبياته لهفة وشوقا، وتئن كلماته الحزينة لشدة ما يلقى من لوعة البعد.

ويحن أبو سلمى –أحيانا- إلى الوطن على سبيل الإجمال:

يـــا فلســـطين وكيـــف الملتقـــى؟ هـل أرى بعـد النـوى أقـدس تـرب؟[1]

هذا التراب المقدس الذي يسأل الشاعر عمن يحييه نيابة عنه لأنه لا يستطيع الوصول إليه:

مـــن يحيمـــي عنـــي التـــراب ويناجي بعد الفراق الحبيبا[2]

[1] ن.م.، ص. 157

[2] ن.م.، ص. 158

ومن هذا الإجمال ينتقل إلى التفصيل فيحن إلى السهول والهضاب والشواطئ والجداول والقرى والمدن.

فلسطين الحبيبة كيف أحيا ... بعيدا عن سهولك والهضاب
تناديني السفوح مخضبات ... وفي سمع الآفاق آثار الخضاب
تناديني الشواطىء باكيات ... وفي سمع الزمان صدى انتحابي
تناديني الجداول شاردات ... تسير غريبة دون اغتراب
تناديني مدائنك اليتامي ... تناديني قراك مع القباب[1]

ومن الطبيعي أن يحظى بيت الإنسان بنصيب آخر من الحنين، وأبو سلمى يحن إلى الدار التي عاش فيها، يحن إليها بكامل معالمها يحن إلى زهرها، وشجرة التين النابتة فيها، وإلى عين الماء خلف الدار، وإلى الكرم بما فيه من ثمار، والى البيدر الذي يذكّره بأيام الحصاد وأيام السمر، بل إنه يحن إلى راعي القرية وأنات نايه الشجية:

هل تسألين النجمة عن داري ... وأين أحبابي وسماري
داري التي أغفت على ربوة ... حالمة بالمجد والغار
تفتح الزهر على خدها ... فعطرت أيام آذار
والتينة الخضراء في ظلها ... تاريخ أشواقي وآثاري
والعين خلف الدار في المنحنى ... تروي حكاياتي وأخباري
والكرم ما أرحب أفياءه ... أحلام عشاق وأطيار[2]

وتمر السنوات في أرض الغربة ثقيلة ثقيلة وما كان يخطر ببال الشعب الفلسطيني أن البعد عن الأرض سيطول فإذا بالأيام تمضي والسنوات تتوالى بكل ما فيها من عذاب ومعاناة وإذا كان الحنين إلى الأوطان طبيعياً في الظروف العادية فإن معاناة الإنسان في أرض الغربة تشعل عنده الحنين وتزيد نار الشوق اشتعالاً.

[1] ن.م.، ص. 173

[2] ن.م.، ص. 160

يا فلسطين مضت عشر وفي كل يوم يسمع الدهر ندانا
وزرعنا الشوق فيه فزكا واعتنقنا مثل ما نهوى كلانا
وسقيناه مع الدمع هوى فارتوى ثم تجلى وسقانا
يا أحبائي مضت عشر ولم تلثم الترب المفدى شفتانا[1]

ويبلغ الشوق عند الشاعر مبلغه وتقف الحواجز دونه حتى لا يصل إلى وطنه فيزداد حزنا وألما ولشدة تعلقه بالوطن فأنه لا يتصور الوطن إلا محزونا كئيباً فلا ربيع يزهر ولا أشجار تثمر ولا أطيار تغرد ما دام أهل الدار قد هجروا الديار.

إن هذا التوحد بين الشعب والوطن يمثل قمة ما وصل إليه الحنين والشوق من تأثير على نفسية الشاعر التي لم تعد تفصل بين الأرض وأهلها فالشعب وفيّ للأرض، محب لها، والأرض محبة لأهلها حزينة كئيبة لفراقهم، ولهذا فهي لا تبدي زينتها بعد ما ألم بها الشتات والعذاب.

أحبابنا كيف السفوح وهل من بعدنا ورد هناك ندي
أنفاسنا الحرى أما برحت أم قد طواها سالف الأمد[2]

وليس للشاعر إلا الدموع يذرفها شوقاً وتحسراً على الأيام الخالية، كما يذرفها حزنا على الأحباب والأهل، فإذا بدموع تتجدد بحيث لا يجف منديل الوداع على الرغم من مر السنين.

أحباب حيفا أنني دنف لم توهن الأيام من جلدي
وهواكم ما زال ملء فمي ويشب في قلبي وجسدي
مازال منديل الوداع على عهد الهوى والقلب لم يحد

[1] ن.م.، ص. 206
[2] ن.م.، ص. 337

نديان من دمعي القديم وقد رويتـــه بـــدموعي الجـــدد[1]

وعلى الرغم مما يلاقيه أبو سلمى من عذاب في حبه لوطنه نتيجة لبعده عنه فإنه مع مرور الأيام يزداد له حباً، ففلسطين في قلبه رغم كل ما يكابده وليس عنده أعز من الانتساب إلى فلسطين المباركة:

قســما بالســفوح إنــا حملنــا يـا فلسـطين في هـواك العـذابا
وإذا مـا ســالت عنــا انتســبنا وأبينـــا إلا إليـــك انتســـابا[2]

وتشاء الأقدار أن تسمح الأنظمة العربية المجاورة لفلسطين بمرور الشاعر عبر أراضيها لزيارة ما تبقى من الوطن ويدخل أبو سلمى فيرتمي على الأرض يقبلها ويبلل ترابها بدموعه:

زحفـت ألـثم أرضـي وهـي باكيـة والقلب باك وراحت تنتشي القبل
وعدت أنشق من عطر التراب هوى في ظلـه التقـت الأجـداد والرسـل[3]

ولشدة ولعه بالأرض وحرمانه منها تصور أنه في حلم وهو يقبل أرض الوطن أنه يقبلها وهو لا يكاد يصدق، أبعد هذا الفراق يمسك تراب فلسطين بيده ويشمه ويقبله ؟!

قبّل الـتراب لا تقـل أنـا حـالم هــذه غــزة العلـى والمكـارم
هـذه أرضـك الحبيبـة يـا قلبي وهــذي رســومها والمعــالم[4]

يقول يعقوب العودات "البدوي الملثم":

"ولو استعرضنا شعراء العربية تالداً وطريفاً وصنفنا من هام منهم بوطنه وعلقوا بحبه وقارنا ما أنشدوه بما أنشده أبو سلمى لوجدناه قد بز أقرانه بلون فريد من شعر الحنين إلى

[1] ن.م.، ص. 373
[2] ن.م.، ص. 234
[3] ن.م.، ص. 215
[4] ديوان أبي سلمى.

الوطن ووصف مصائبه وإحنه وتصوير كوارثه ومحنه"[1].

ختامًا، فإن أبا سلمى يأمل أن يلتقي الأهل على أرض الوطن وتعم الفرحة وما أحلى اللقاء من بعد الشتات، وأبو سلمى مصمم على العودة غداً وليس بعد غد وهو يستعجل ذلك حتى تزهر الآمال الباسمة وتتحقق أحلى الأمنيات:

وغداً يعود إلى فلسطين الأحبة بالبشائر
وغداً تلاقينا الصبايا والصغار على البيادر
وغداً يعود إلى الديار شبابها والقلب ناضر
وغدًا نطير إلى شواطئنا ونسبق كل طائر
هذي فلسطين الحبيبة في القلوب وفي الضمائر[2]

وتراخت الأيام والسنون وأبو سلمى مع شعبه الصابر المضحي، لا يفقد الأمل بالعودة، وعلى الرغم من كل عوامل التيئيس والإحباط فإن أبا سلمى عاش مشدود الوتر، ويحيا بأمله الذي لا يتزعزع.

[1] يعقوب العودات، من أعلام الفكر والأدب في فلسطين، ط. 2.، 1987، ص 540.

[2] **ن.م.، ص.** 240

المصادر والمراجع:

1. خلف، علي حسن. **أبو سلمى زيتونة فلسطين**. د.م: الاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين، د.ت.
2. الكرمي، عبد الكريم. **الشيخ سعيد الكرمي، سيرته العلمية والسياسية**. دمشق: المطبعة التعاونية، 1973.
3. الفار، مصطفى. **الشاعر أبو سلمى أديباً وإنسانا**. ط.1. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1985.
4. الأسد، ناصر الدين. **الشعر الحديث في فلسطين والأردن**. د.م: مطبعة لجنة البيان العربي، 1961.
5. خورشيد، محمد. **أمير الشعراء شوقي بين العاطفة والتاريخ**. ط.1. القدس: مطبعة بيت المقدس، د.ت.
6. البدوي الملثم. **إبراهيم طوقان في وطنياته ووجدانيته**. بيروت: المكتبة الأهلية، 1964.
7. شلحت، أنطوان. **أبو سلمى الرمز والقصيدة**. عكا: مكتبة ومطبعة أورحمون، 1982.
8. **الموسوعة الفلسطينية**. ج. 3. ط. 1. د.م: د.ن، 1984.
9. ديوان عبد الكريم الكرمي (أبي سلمى). بيروت: دار العودة، 1978.
10. العودات، يعقوب. **من أعلام الفكر والأدب في فلسطين**. ط. 2. عمان: جمعية عمال المطابع التعاونية، 1987.
11. **صحيفة الثورة**، دمشق، العدد 4853، تاريخ 1978/12/21
12. **صحيفة الثورة**. دمش، 1980/10/15
13. أحمد صوان. **صحيفة الثورة**. دمشق، 1980/6/8
14. صحيفة تشرين، العدد (933) دمشق، 1978/10/17.
15. **مجلة الكاتب الفلسطيني** العدد (1) شباط 1978.
16. **مجلة المعرفة** العدد (159) أيار1975.
17. **مجلة فلسطين الثورة**، العدد (351)، 1980/10/27.